

بِسْمِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الأول بلا ابتداء ، الآخر بلا انتهاء . والصلاة والسلام على المصطفى المختار ، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين . اللهم صلّ وسلّم وبارك عليه وعلى أبويه الكريمين إبراهيم وإسماعيل ، ثم على إخوانه المُصنّفين الأخيار ، وآله الأطهار ، وصحابته الأبرار ، وعلى كل من دعى بدعوته واهتدى بهديه إلى يوم الدين والجزاء .

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ، وَاَرْحَمْ لِهَلْمُ آبَاءِنَا وَأَهْلَانَا وَمَشَائِكُنَا وَأَسْتَاذِنَا وَأَسْتَاذَ أَسْتَاذِنَا ، وَكُلِّ مِنْ لِهَ حَقُّ عَلَيْنَا .

ثم أما بعد :

فإن علم التاريخ عند المسلمين من العلوم الضخمة ، ويوشك هذا العلم أن يكون نصف المكتبة العربية . وانظر علم قوائم الكتب (البليوجرافيا العربية) مثل فهرست لابن النديم ، ومفتاح السعادة لطاش كبرى زاده ، وكشف الظنون للحاج خليفة ، وذيله : إيضاح المكنون لإسماعيل البغدادي ، وانظر ما يصنعه العلماء لأنفسهم من المعاجم والفهارس والمشيخات والأبواب والبرامج .

ثم انظر من المصنّفات الحديثة في هذا العلم - علم قوائم الكتب - اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ، لإدوارد فنديك ، ومعجم المطبوعات العربية والمعربة ، ليوسف إلبان سركيس ، وخزائن الكتب العربية في الخافقين للفيكونت فيليب دى طرازى ، وتاريخ الأدب العربى للمستشرق الألماني كارل بروكلمان ، وتاريخ التراث العربى للدكتور محمد فؤاد سزجين .

ثم انظر في فهارس المكتبات العامة الكبرى الموزعة على القنوع . بل ادخل

مكتبة من المكتبات الخاصة التي يُعنى أصحابها بجمع الكُتب : وسترى في ذلك كله غلبة ظاهرة لعلم التاريخ (١) .

وتفسير هذا أن علم التاريخ عند المسلمين ليس هو فقط تلك الكُتب الحَوْلِيَّة ، مثل تواريخ الطبرى وابن الأثير وابن كثير ، أو كُتب الأحداث العامة ، مثل مروج الذهب ، والتنبيه والإشراف للمسعودى ، وإنما يدخل فيه ، بل يمثل الجانب الأكبر منه « فن التراجم » وهو بحرٌ خِضَمٌ .

على أن « فن التراجم » عند المؤرِّخين المسلمين لا يُعنى فقط بذكر أحوال المترجم : مولداً ووفاةً ، وشيوخاً وتلاميذ ، وعِلماً وتصنيفاً ، بل إنه غالباً - وبخاصة في الموسوعات - يمتد ليشمل الحوادث والأحداث العامة التي يكون العَلَمُ المترجم قد شارك فيها ، أو عاصرها ، أو كان منها ، أو كانت منه بسبب ، بل إن بعض مصنِّفى كتب التراجم يعرض للحوادث والأحداث بدواعى الاستطراد ليس غير ، والاستطراد سِمةٌ من سِمات التأليف عند كثير من علمائنا ومؤرِّخينا .

وعلى سبيل المثال فإن كتاباً مثل « طبقات الشافعية الكبرى » لتاج الدين ابن السبكي يضعه مصنِّفو العلوم في فنّ التراجم والطبقات ، إذ كان مؤلفه قد أقامه على تراجم الفقهاء الشافعية منذ إمامهم محمد بن إدريس الشافعى في أوائل القرن الثالث ، إلى منتصف القرن الثامن ، ولكنّ النظر الصحيح يضعه في المكتبة العربية كلها ، إذ كان مؤلفه قد أداره على علوم كثيرة ، بعد أن يفرغ من ترجمة الرجل على رسمها المعروف ، ثم كان لأحداث التاريخ عنده النصيب الأوفى ، فأنت تجد عنده أحاديث ضافية عن كائنة التُّنار ، وقصة جنكيزخان وحفيده هولوكو ، وعن حادثة الصليبيين (٢) . وقُلْ مثل هذا في كثير من موسوعات كتب التراجم ، مثل وفيات الأعيان لابن خلكان ، وسر أعلام النبلاء للذهبي ، ونفح الطيب للمقرئ .

(١) تأمل على سبيل المثال فهرس دار الكتب المصرية ، وفهرس معهد المخطوطات .

(٢) انظر الطبقات ١/٣٢٨ - ٣٤٣ ، ٧/٣٤٤ - ٣٦٩ ، ٨/٢٦٨ - ٢٧٧ .

ولقد تَفَتَّنَ المؤرِّخون المسلمون في كُتُب التراجم تَفَنُّناً عَجيباً ، وأخذت تصانيفهم في هذا الفن طرائق شتى ، فبعد كتاباتهم الأولى في السِّيرة النبوية والمغازي ، جاءت تصانيفهم مُوزَّعةً مفرقةً على تراجم الصحابة والتابعين ، والقراء والمفسرين ، والمحدِّثين والرُّواة ، وفقهاء المذاهب الأربعة ، والأصوليين ، والشيعية وال معتزلة ، والزُّهاد والصُّوفية ، والوعاظ والقصاص والمذكرين ، والأدباء والشعراء ، واللغويين والنُّحاة ، والأطباء والحكماء والفلاسفة ، والقضاة ، والخلفاء والوزراء ، والمؤرِّخين والنِّسائيين ، وتراجم النساء .

ثم يأتيك هذا الفن أيضاً في التراجم على البلدان ، مثل أخبار مكة والمدينة والقدس ، ومصر واليمن وبغداد والموصل والشام وجرجان وأصبهان وإربل وواسط ، والمغرب والأندلس ، والكُتُب في هذين فيضٌ زاخر .

وكذلك في التراجم على القُرُون : كالدُّرَر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ، لابن حجر العسقلاني ، والضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، لشمس الدين السُّخاوي ، وما جاء بعد ذلك إلى القرن الرابع عشر (١) .

ثم تأتي التراجم العامة - وهي كتب التاريخ عند بعض الناس ممن ليس عندهم كبيرُ علم ، يظنون أنها كُتُبُ التاريخ ، ولا كُتُبُ للتاريخ غيرها - وهذه التراجم العامة على قسمين :

أ - التراجم المرتبة على السنين ، وذلك في كتب التاريخ المعروفة بالحَوَلِيَّات ، كتاريخ الأمم والملوك للطبري ، والكامل لعز الدين بن الأثير ، والمختصر في أخبار البشر ، لأبي الفداء الملك المؤيد ، صاحب حماة ، والعبّر في خبر من عبّر للذهبي ، والسلوك للمقرئزي ، والنجوم الزاهرة لابن تغري بَرْدِي ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلي .

(١) انظر هذه السلسلة من التراجم على القرون في كتابي : الموجز في مراجع التراجم ص ٧٤ ، وانظر كتب التاريخ بمناهجها المختلفة في الوافي بالوفيات ٤٧/١ ، وما بعدها .

ب - التراجم المرتبة على الأسماء . ومن أبرزها : وفيات (١) الأعيان لابن خَلْكَان ، وفيات الوفيات لابن شاعر الكتبي ، والوفاء بالوفيات للصفدي ، وسير أعلام النبلاء للذهبي (٢) .

ثم تأتيك التراجم أيضاً في كُتُب أنساب العرب ، مثل مختلف القبائل ومؤتلفها لابن حبيب ، والاشتقاق لابن دريد ، والإيناس بعلم الأنساب للوزير المغربي ، وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ، وعُجالة المبتدى وفُضالة المنتهى في النسب لأبي بكر الحازمي .

وفي كتب الأنساب بَوَجْهِ عام (٣) : إلى قبيلة ، أو بلد ، أو صناعة ،

(١) كتاب ابن خلكان هذا يذكرنا بتلك الكتب التي قامت على الوفيات بمفهوم آخر ، وأذكر منها هنا : وفيات المصريين في العهد الفاطمي لأبي إسحاق بن الحبال المتوفى سنة ٤٨٢ ، والوفيات لأبي مسعود الأصبهاني المتوفى سنة ٥٦٦ ، والتكملة لوفيات الثُقَلَة للحافظ المنذرى المتوفى سنة ٦٥٦ ، ووفيات ابن قُتُذ المتوفى سنة ٨١٠ .

والفرق بين هذه الكتب وبين وفيات ابن خلكان أن هذا نُزِل أسماء الأعيان في « وفياته » على منازلهم من الترتيب على حروف المعجم ، وكذلك صنع ابن شاعر والصفدي اللذان حمل كتابهما نفس عنوان ابن خلكان . أمّا الوفيات المذكورة فقد قامت أساساً على الوفيات ، فتذكر السنة وتحمل أسماء من تُوفوا فيها ، أو تذكر الأعلام المترجمين بتسلسل بني وفياتهم . وللمؤرخين المسلمين في هذا اللون من التأليف - الوفيات - جهودٌ ضخمة ، تراها وترى الكلام على مناهجها في كتاب صديقي الدكتور بشار عواد معروف (المنذرى وكتابه التكملة) ص ١٩٩ وما بعدها .

(٢) وهذا الحافظ الذهبي مؤرّخ الإسلام ، ركّن باذخ من أركان التاريخ الإسلامي ، وكتاباته في هذا العلم رحيّة واسعة ، ويأتي على رأسها كتابان : أولهما تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام . وقد تناول فيه تاريخ الإسلام من بدء الهجرة النبوية حتى سنة ٧٠٠ ، فجمّع مادّة ضخمة في نطاقه الزماني المتدّ عبر سبعة قرون كاملة ، وفي نطاقه المكاني الشامل لجميع الرقعة الواسعة التي امتدّت إليها الإسلام من الأندلس غرباً إلى أقصى المشرق . ويُعدّ هذا الكتاب من أجمع كتب التراجم ، إذ تُقدّر تراجمه بأربعين ألف ترجمة . انظر كتاب صديقي الدكتور بشار عواد معروف - أحسن الله إليه - (الذهبي ومنهجه في كتابة التاريخ الإسلامي) .

والكتاب الثاني : هو سير أعلام النبلاء . وهو مطبوعٌ متداول ، في خمسة وعشرين مجلداً ، منها مجلّدان للفهارس . وهو كتاب تاريخ وعلم وحضارة .

(٣) انظر وجوه الأنساب في أعلام الحديث للخطاطي ص ١٧٥٩ ، والوفاء بالوفيات ٢٢/١ ، ٢٣ .

أو مذهب ، أو شيخ . ومن هذه الكتب : الأنساب لأبي سعد السمعاني ،
والتراجم في هذا الكتاب غنيّة جداً ، واللُّباب في تهذيب الأنساب لعز الدين بن
الأثير ، ولبّ اللُّباب في تحرير الأنساب للسيوطي .

وفي كتب ضبط الأعلام والكنى والألقاب والأنساب ، مثل المبهج في تفسير
أسماء شعراء الحماسة لابن جنى ، والإكمال في رفع الارتياح عن المختلف والمؤتلف
من الأسماء والكنى والأنساب للأمير ابن ماکولا ، وتكملة الإكمال لابن نقطة
البغدادى الحنبلى ، والمشتبه في الأسماء والأنساب والكنى والألقاب للذهبي ،
وتبصير المنتبه بتحرير المشتبه لابن حجر العسقلاني .

وفي كتب البلدان (الجغرافيا العربية) مثل معجم ما استعجم للبكري ،
ومعجم البلدان لياقوت الحموى ، والروض المعطار في خبر الأقطار للحميرى .
وتأتيك التراجم أيضاً في علم قوائم الكُتُب (البليوجرافيا العربية) مثل
الفهرست لابن النديم ، ومفتاح السعادة ومصباح دار السيادة لطاش كبرى زاده ،
وكشف الظنون للحاج خليفة - وقد أشرت إلى ذلك في صدر هذه المقدمة .
ومن هذا الفن فرعٌ مهم جداً ، وهو ما يعرف بالمعاجم والفهارس
والمشيخات والأثبات والبراج ، وهو لون من التأليف يجمع بين الشيوخ والكتب ،
فقد جرى كثيرٌ من العلماء على أن يصنع لنفسه معجماً أو فهرساً أو مشيخة
أو ثبتاً أو برنامجاً ، يذكر فيه شيوخه الذين أخذ عنهم العلم ، والكتب التي سمعها
منهم ، مُستندةً إلى مؤلفها (١) .

ثم تأتي التراجم أيضاً في ذلك اللون من التأليف الذي يُديره المصنّفون
حول عَلمٍ واحد أو اثنين أو ثلاثة ، ثم يستطردون من ذلك إلى تراجم أخرى
بالتبعية أو المناسبة ، كما ترى في : مناقب الإمام أبي حنيفة وصاحبيه أبى يوسف
ومحمد بن الحسن ، للذهبي ، ومناقب الشافعى للبيهقى ، ومناقب الإمام أحمد
لابن الجوزى ، والانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء : مالك والشافعى وأبى

(١) انظر تفصيلاً أكثر عن هذه الكتب في كتابي : الموجز ص ١٠١ - ١٠٥ .

حنيفة ، لابن عبد البر ، وتبيين كذب المفتري فيما نُسبَ إلى الإمام أبي الحسن الأشعري لابن عساكر ، وسيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ، وسيرة عمر أيضاً لابن الجوزي ، والمصباح المضيء في خلافة المستضيء ^(١) لابن الجوزي ، ومحاسن المساعي في مناقب الإمام أبي عمرو الأوزاعي ، لأحد رجال القرن التاسع ، كما ذكر محققه ونشره الأمير شكيب أرسلان ، في آخره .

وتأتيك التراجم أيضاً فيما يُسمى بكتب الحضارة الإسلامية ، مثل المعارف لابن قتيبة ، والمخبر والمنمق ، كلاهما لابن حبيب ، ومروج الذهب والتنبيه والإشراف ، كلاهما للمسعودي ، ولطائف المعارف للثعالبي .

وهناك باب عظيم أيضاً من باب التراجم ، هو ما يُعرف بالسُّؤالات ، مثل سُؤالات أبي عبيد الأجرّي : أبا داود السُّجستاني ، وسُؤالات عثمان بن سعيد الدارمي : يحيى بن معين ، وسُؤالات أبي عبد الرحمن السُّلَمي : الدارقطني ، وسُؤالات الحافظ السُّلَمي : حَميساً الحَوَزي ، عن جماعة من أهل واسط ^(٢) .

وواضح أن هذه السُّؤالات تدور حول علم الرجال - وهو علم الجرح والتعديل - لكنها مع ذلك اشتملت على تراجم لغير المحدثين ، ثم تضمنت فوائد جلية في التاريخ وغيره ، كما ترى مثلاً في سُؤالات الحافظ السُّلَمي المذكورة ^(٣) .

ومن وراء ذلك كله : فإن التراجم تأتيك في غير مَظانِّها - وهو بابٌ طويلٌ جداً - حَسْبِي أن أشير إلى شيءٍ منه هنا ، رغبةً في إفادة طالب العلم

(١) فهذا وإن كان ظاهره أنه في مناقب الخليفة العباسي المستضيء ، فإنه ليس خالصاً له ، وإنما استطرد ابن الجوزي فيه إلى تراجم كثيرة للصحابة وللخلفاء العباسيين ، مع عناية ظاهرة بالوعظ والتذكير ، يقدمها ابن الجوزي للسلطان أو للحاكم لكي يستضيء بها في معالجة الأحوال السياسية والاجتماعية ، كما ذكرت محققة الكتاب المذكورة ناجية عبد الله إبراهيم .

(٢) انظر شيئاً عن هذه السُّؤالات في مقدمة تحقيق سُؤالات أبي عبيد الأجرّي ص ٦٠ .

(٣) انظر مقدمة محققها ص ٢٥ ، وانظر شيئاً من الفوائد في السُّؤالات نفسها ص ٢٤ .

الشَّادِي المبتدئ ، أمَّا أهل العلم وخاصَّته فهم أقدرُ مني على ذلك وأبصرُ
ثم إنِّي أريدُ أيضاً أن أؤكد على أن المكتبة العربية كتابٌ واحد ، وأن العلوم
يحتاج بعضها إلى بعض ، وأنه لا يُغني كتابٌ عن كتاب :

معلومٌ أن تراجم الصحابة تُلتَمَس من كُتُبها : الطبقات الكبرى لابن سعد ،
والاستيعاب لابن عبد البر ، وأسَد الغابة لعز الدين بن الأثير ، والإصابة لابن
حَجَر . ولكنك إذا أردت ترجمة صحابيٍّ على نحوٍ كاملٍ مُستَوِجٍ ، فلا بدَّ لك
من النظر في كتبٍ أخرى ، منها دواوين السُّنة : صحاحُها ومسانيدها ، فقد
أفرد أصحابُ السُّنن في دواوينهم كُتُباً وأبواباً تُسمَّى : المناقب أو الفضائل ،
ويسمِّيها الحاكم النيسابوري في المُستَدْرَك : معرفة الصحابة . ولا غنى لك أيضاً
عن النظر في كتاب هَدَى السَّارَى مقدمة فتح الباري ، فقد أفرد فيه ابن حجر
مكاناً ضخماً لتراجم الصحابة والتابعين ، ولا تقل إنه سيُكرَّر في كتابه هذا
ما ذكره في كتبه الأخرى ، مثل الإصابة وتهذيب التهذيب ، لا تقل هذا ؛ لأن
في كلِّ كتاب من الفوائد ما ليس في الآخر (١) .

ومن باب التماس التراجم من غير مَظَانِّها : ماتراه من تراجم اللغويين
والنحاة الأوائل في مقدمة معجم تهذيب اللغة للأزهري ، وفي كتاب الزهر في
علوم اللغة للسُّيوطي ، وماتره العلامة عبد القادر بن عمر البغدادي في موسوعاته
الكبرى : خزانة الأدب ، وشرح أبيات مغنى اللبيب ، وحاشيته على شرح بانث
سعاد لابن هشام ، وشرحه على شواهد شرح التحفة الوردية . وباب التراجم
عند البغدادي باب واسع جداً ، لأن مكتبته كانت ضخمة جداً .

وقُل مثل هذا في كتاب المرتضى الزبيدي ، الضخم « تاج العروس من
جواهر القاموس » ففي هذا الكتاب أنسابٌ وتراجم كثيرة جداً ، وبخاصة ما يتصل

(١) انظر على سبيل المثال ترجمة « عكرمة مولى ابن عباس » في تهذيب التهذيب ٧/٢٦٣ ، وفي
هدى السَّارَى ص ٤٢٥ ، وتأمل الفرق بين مساق الترجمة في الكتابين .

بالتأخرين ، وعلى ذكر اللغويين والنحاة ، فإن أوسع ترجمة وأشملها لواضع النحو
أبى الأسود الدؤلى ، تراها فى كتاب الأغانى (١) .

وكذلك تجد أجود ترجمة وأحسن كلام عن أبى سعيد السيرافى النحوى
الكبير فى كتاب الإمتاع والمؤانسة ، لأبى حيان التوحيدى ، وكان هذا شديد
الإعظام لأبى سعيد ، والتوقير له (٢) .

وتنتثر التراجم أيضاً فى معارف القوم وعلومهم : ففى موسوعات التفسير
والحديث والفقه وأصوله وعلم الكلام ، وكتب الأدب واللغة وشروح الشعر ،
وسائر فروع العلم ، استطرادات مهمة فى تراجم الرجال .

وأريد أن أذكر بما قلته فى صدر هذه الكلمة الموجزة ، من أن علم التاريخ
الإسلامى بمعنى الحوادث والأحداث قد اختلط بعلم التراجم والطبقات ، كما أن
هذا العلم اختلط أيضاً بكتب التاريخ القائمة أساساً على الحوادث والأحداث ،
دخل كل منهما فى نسيج الآخر والتحم به ، بل إن علومنا كلها يجذب بعضها
بعضاً ، على نحو ما قال سفيان بن عيينة : « كلام العرب بعضه يأخذ برباب
بعض » (٣) .

إن علم التاريخ عند المسلمين ليس كعلم التاريخ عند الأمم الأخرى : أحداثاً
وتقلبات أيام ودول فقط ، إن كتب التاريخ عندنا هى مجلّى حضارتنا وثقافتنا
العربية والإسلامية كلها :

(١) فقد جاءت الترجمة فى ٣٨ صفحة من القطع الكبير ، وذلك فى الجزء الثانى عشر ، من ص ٢٩٧
- ٣٣٤ ، والعلّة فى ذلك واضحة ، وهى جامعة « التشيع » التى تجمع بين أبى الأسود وأبى الفرج ،
ولكن أبى الفرج أفادنا فوائد جيدة فى ترجمة أبى الأسود . وأتبه هنا إلى أن الصدقى قد اعتبر « كتاب
الأغانى » من مصادر كتب التاريخ ، ووضعه فى قائمة « التواريخ الجامعة » كتاريخ الطبرى وما إليه ، انظر
الرواى بالوفيات ٥٠/١ .

(٢) الإمتاع والمؤانسة ١/١٠٨ ، وما بعدها ، ثم انظر مواضع أخرى من فهرس الأعلام للكتاب .
وانظر أيضاً فهرس الأعلام من كتاب البصائر والذخائر ١٠/٤٢ ، وفهرس الأعلام من الصداقة والصدى
ص ٤٧٥ ، ومن مثالب الوزيرين ص ٣٧٠ ، ومن المقابسات ص ٣٩٠ ، ٣٩١ .

(٣) الأغانى ١٧٠/١٨ (أخبار ابن منذر) .

إن علماء الحديث يُخَرِّجون أحاديثهم من « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي ، وأهل الأدب يجمعون أشعار الشعراء من « تاريخ دمشق » لابن عساكر ، وكذلك يجمعون الشعر من كتب الجغرافيا العربية : معجم ما استعجم للبكري ، ومعجم البلدان لياقوت الحموي ، والروض المعطار للحميري ، كما جمعوا منها التراجم من قبل .

بل إن اللغة والشعر يُجمعان من كتب النبات وكتب الهيئة ، كالذي تراه في كتاب النبات لأبي حنيفة الدينوري ، وكتاب الأزمنة والأمكنة للمرزوق . والحديث في هذا ونحوه مما يطول جداً .

* * *

وهذا الذي ذكرته على سبيل الوجازة والاختصار - وقد فاتني منه الكثير - يدلُّك ، إن شاء الله ، على اتساع دائرة علم التاريخ عند المسلمين : أحداثاً وتراجم ، ولعله يُرْهِدُكَ في تلك الدعوة التي تُثار بين الحين والآخر : وهي دعوة (إعادة كتابة التاريخ الإسلامي) على ما يرى بعضهم من بُذ الكتاب القديم ، بعد استخلاص مُجمَلِه ، وتخليصه من الشوائب التي فيه ، ثم تقديمه بلغة العصر . وذلك كله مَرَكَّبٌ صَغْبٌ وطريقٌ مَخُوفٌ ، وهو مما يَحْبِطُ الناسُ فيه حَبْطاً شديداً ، وليس هنا موضع الردِّ على هذه القضية ، لكن لا بأس من التذكير ببعض الأمور :

أولاً : إذا ثبت عندك اتساع دائرة التاريخ الإسلامي ، فإن من يُحاول إعادة كتابة ذلك التاريخ لا بُدَّ أن يكون على معرفة بمراجع التاريخ الإسلامي بفرعَيْهِ : الأحداث والتراجم ، ثم ما يتناثر منه في تضاعيف الفنون الأخرى ، كما حدَّثتكَ قريباً .

ثانياً : اللغة هي الباب الأول في ثقافة أمة من الأمم ، فواجبٌ على من يتصدى لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي أن يكون متضلماً - أو على الأقل

عارفاً - من اللغة : مألوفها وغريبها ، ونحوها وصرفها (١) ، ثم التنبيه للأعراف اللغوية لكل عصر من العصور (٢) .

ثالثاً : إن من يعيد كتابة تاريخ من تواريخ السابقين ، أو يحاول اختصار كتاب في علم من العلوم ، أو تهذيبه ، لا بد أن يكون في علم صاحب الكتاب الأصلي ، أو على درجة مقاربة له ؛ لأن المُعيد أو المختصر أو المهذب حيثذ يكون سمياً بصيراً ، يعرف ماذا يأخذ وماذا يدع ، ولذلك قيل أهل العلم « مختصر صحيح مسلم » للحافظ المنذرى ، و« مختصر تفسير الطبري » لأبي يحيى محمد ابن صُمَادِحِ التُّجِيبِي ، و« تهذيب أنساب السُّعَمَانِي » وهو المسمى للباب ، لعز الدين بن الأثير ، و« مختصر الأغاني » و« مختصر تاريخ دمشق » لابن عساكر ، كلاهما لابن منظور صاحب « لسان العرب » . وفي عصرنا الحديث قبلنا « تهذيب الأغاني » للشيخ محمد الخضري ، و« تهذيب سيرة ابن هشام » و« تهذيب الحيوان » للجاحظ ، كلاهما لأستاذنا العلامة عبد السلام محمد هارون ، بِرَدِّ اللَّهِ مَضْجَعَهُ .

رابعاً : إن الخدمة الحقيقية لتاريخنا إنما تكون بإعادة تحقيقه ونشره وفق

(١) ليس على سبيل الإلتقان والإحاطة ، فهذا غير وارد وغير ممكن ، ولكن على سبيل المعرفة التي تعصم من الأخطاء الشنيعة البلقاء . يقول الحافظ البيهقي في مقدمة كتابه تهذيب الكمال في أسماء الرجال ص ١٥٦ : « وينبغي للناظر في كتابها هذا أن يكون قد حصل طرُقاً صالحاً من علم العربية : نحوها ولفظها وتصريفها ، ويزن علم الأصول والفروع ، ومن علم الحديث والتواريخ وأيام الناس » .

وانظر شروط المؤرخ في الإعلان بالتبويب لمن ذم التاريخ ص ١١٤ ، وما بعدها ، وطبقات الشافعية الكبرى ٢٣/٢ ، وما بعدها ، والوالم بالوفيات ٤٦/١ .

(٢) تظهر الهنئة في هذا الأمر واضحة جلية عند من يتصنّفون للتاريخ المملوكي ، وهو زاخر بالأعراف اللغوية والمصطلحات غير المألوفة إلا لمن جمع مراجع ذلك العصر : لغة وأدباً وتاريخاً ، وعندى من ذلك أمثلة كثيرة ، إذ كنت في بداياتي العلمية أيام نسخ المخطوطات والعمل مع المستشرقين على صلة بذلك الأمر ، وقد أشترت إلى شيء من ذلك في كتابي مدخل إلى التاريخ نشر التراث العربي ص ٢٢٧ .

الأصول العلمية الصحيحة ، ثم فهرسته الفهرسة العلمية الفنية ، ولست أعنى مجرد تلك الفهارس التقليدية المألوفة ، مثل فهارس الأعلام والقبائل والمواضع والشواهد ، وإنما أريد - إلى جانب ذلك - فهارس العلوم والفنون المختلفة وحوادث الأيام ، المبثوثة في ثنايا الكتاب المحقق ، بضم النظر إلى النظر ، وقرن الشبيه إلى الشبيه ، وستكون هذه الفهارس الفنية الكاشفة عُدَّة وَعَوْنًا للدراسات والبحوث التي لا تقوم إلا على النص الموثق المحرر .

أما ما يُقال عن غزيلة التاريخ الإسلامي ، وتصفيته من الأخطاء والأوهام ، وتخليصه من محاباة الحكام والملوك ، وتنقيته من مظاهر الإسراف والمبالغات ، ثم ما يُقال لك من أن ما ضينا غارق في الظلمات : فكل أولئك من الكلام الذي يُرسَلُ إرسالاً ، لثملاً به مجالس السمر ، ويتخذ سبيلاً لادعاء العلم .. ولذلك وأشباهه حديث آخر .

• • •

هذا الكتاب

لونّ من ألوان تفتن المؤرّخين في « فنّ التراجم » ، فالكتاب يدور حول وفيات الأعيان - أى مشاهير الناس في مُختلف مواقعهم ومناصبهم - على العقُود ، فيذكر المؤلّف على رأس العقُد من السنين وفي ثناياه من تُوفى فيه من هؤلاء الأعيان المشاهير : فهؤلاء تُوفوا في الأربعين من عُمرهم ، وهؤلاء تُوفوا في الخمسين ، وفريق ثالث تُوفى بين هذين العقُدين ... وهلمّ جرّاً على هذا المنهج : ذكر أعمار الناس على رعوس العقُود ، وما بيّنها من السنين .

وقد بدأ الكتاب بمنّ تُوفوا في سنّ العاشرة وما زاد عليها - وهم أولاد العلماء الأعيان - وانتهى بوفيات المُعتمّرين من عقد الألف وما زاد .

وهذا منهجٌ جديد في تراجم الناس ، لم أجد له شبيهاً قبل ابن الجوزى إلا ما ذكره أبو منصور الثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ ، في كتابه (لطائف المعارف) ، تحت عنوان (اتفاق الأعمار) ولم يأخذ هذا من الكتاب سوى صفحة واحدة (١) .

ومن هذا المنهج - وإن كان في نطاقٍ ضيّقٍ - كتاب (أعمار الخلفاء) لأبى الحسن المدائنى المتوفى سنة ٢٢٨ (٢) .

ومنه أيضاً (أعمار الأئمة) وهو رسالة لأحمد بن محمد الفريابى ، من علماء القرن الثالث ، وهى مخطوطة بمكتبة جلىي عبد الله باستنبول (٣) .

(١) لطائف المعارف ص ١٣٨ .

(٢) الوافى بالوفيات ٤٤/٢٢ ، ولا أعرف لكتاب المدائنى هذا وجوداً .

(٣) تاريخ التراث العربى - المجلد الأول ، الجزء الأول - علوم القرآن والحديث ص ٣٢٢ .

الكتاب بين مؤلفات ابن الجوزي التاريخية

يُعدّ ابن الجوزي من المصنّفين الكثيرين ، وقد قال عنه الحافظ الذهبي :
« وما علمتُ أحداً من العلماء صنّف ما صنّف هذا الرجل » (١) .

وقد دارت تصانيف ابن الجوزي حول معظم فنون العربية : في التفسير
وعلم القرآن والحديث والفقه واللغة والأدب والوعظ والتصوّف .

ويحتلُّ « التاريخ » مكانة بارزة في مؤلفات ابن الجوزي ، ومن أشهر
مصنّفاته التاريخية ما هو مطبوع : المنتظم ، وصفة الصفوة ، وشذور العقود في
تاريخ العهود ، وتلقيح فهوم أهل الأثر ، وكتاب القصّاص والمذكّرين ، والذهب
المسيوك في سير الملوك ، وعقلاء المجانين ، وأخبار الأذكىاء ، وأخبار الحمقى
والمغفلين ، وأخبار الظُراف والمتاجنين ، والمصباح المضيء في خلافة المستضيء ،
ومشايخته (٢) .

ولمّا كان ابن الجوزي قد وُلد سنة ٥١٠ تقريباً ، وهذا الكتاب (أعمار
الأعيان) قد قرىء عليه سنة ٥٨٥ ، فيكون قد صنّفه وهو في نحو الخامسة
والسبعين ، وهي سنٌ من مَضَى به العُمُر والتصنيف أشواطاً بلغت به المدى .
فيكون رحمه الله قد وظّف معارفه التاريخية في هذا الكتاب ، وأقامه على هذا
المنهج الذي لم يُسبق إليه ، كما أُشّرت ، فالذي يُولف كتاباً في الأعمار ، لا بدّ
أن يكون قد مارس التاريخ طويلاً ، ونظر في تراجم الناس كثيراً ، ووقف عند
مواليدهم ووفياتهم ، ثمّ خصّص وطّرح ، حتى يستقيم له هذا المنهج .

(١) تذكرة الحفاظ ص ١٣٤٤ . وقد صنّف الأستاذ عبد الحميد العلّوجي كتاباً في مصنّفات ابن
الجوزي سَمّاه : مؤلفات ابن الجوزي ، وطبع ببغداد سنة ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٥ م ، واستدركت عليه
وزادت أشياء المذكورة ناجية عبد الله إبراهيم ، في عمَل سنّته : قراءة جديدة في مؤلفات ابن الجوزي ،
وطبع ببغداد أيضاً سنة ١٩٨٧ .

(٢) انظر : التاريخ العربي والمؤرّخون - للدكتور شاكِر مصطفى - الجزء الثاني ص ١٠٩ - دار-
العلم للملّين - بيروت ١٩٨٧ م ، وانظر الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ - الفهارس ص ٤٢٣ .

فوائد هذا المنهج من التراجم

لعل ناظراً عاجلاً في هذا الكتاب على هذا المنهج ، يرده إلى الطرائف والتوارد والمسامرات ؛ لأن ابن الجوزي يذكر فيه مثلاً أن سيدنا رسول الله ﷺ توفى في سنّ الثالثة والستين ، وهي السنّ التي توفى فيها أبو بكر الصديق وعمر ابن الخطاب وعبد الله بن مسعود ، رضى الله عنهم أجمعين ، وغيرهم من المشاهير (١) .

ويذكر أن الخليفة هارون الرشيد مات في السابعة والأربعين ، وهي السنّ التي مات فيها ابنه المأمون (٢) .

وهؤلاء إخوة ثلاثة ولُتوا في سنة واحدة ، وتوفوا في سنة واحدة ، وهم : يزيد وزباد ومدرک ، بنو المهلب بن أبي صفرة (٣) .

فهذا كله مما قد يدخل في باب المسامرة والمذاكرة . ولكن ليس الطريق هنالك ألقى هذا الكتاب بذلك المنهج فوائد تاريخية ، تراها أيها القارئ الفطن ، إذا أثبت على الكتاب : قراءة بصيرة وتدبر ، ولكنتي أونسك بالدلالة على شيء منها ، ولعلك - إن شاء الله - بالغ بأناتك ما لم أبلغه بعجليتي :

أولاً : تصحيح التصحيف ، وذلك أنه يشيع في بعض كتبنا فيما يتصل بعقود الأعداد ، الخلط بين « السبعين » و « التسعين » ، ولذلك يُقيد بعض المؤلفين أو الناسخين الضابطين بالعبارة ، بقولهم : « السبعين ، بتقديم السين » ، و « التسعين بتقديم التاء » ، ويُهمل ذلك بعضهم فيقع الخلط بالتصحيف . فذكر العقود في كتابنا هذا وسيلة أمان من ذلك التصحيف المأثور . وقد صحح ذلك المنهج بعض ما رأيته من ذلك في كتب التراجم (٤) .

(١) انظر ص ٤١ من الكتاب .

(٢) ص ٣٢ ، لكنتي علقته هناك بأن هذا لا يستقيم بالنسبة للرشيد ، فإنهم ذكروا مولده سنة ١٤٨ ، أو ١٤٩ ، أو ١٥٠ ، وأنه تولى سنة ١٩٣ ، فيكون قد مات دون السابعة والأربعين التي ذكرها المصنف .

(٣) ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٤) انظر تراجم (جبر بن عتيك ، وعبد الله بن عمرو ، وطاوس بن كيسان ، وأبي الحسن المدائني ، وأبي سعيد الخدري ، ونحوها بن جبر) صفحات ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٨٩ .

ثانيا : بعضُ الأعلام لم يذكر المترجمون لهم إلا سنة وفاتهم ، فيذكر مَلَفُ أعمارهم عند وفاتهم عَرَفْنَا سنة ميلادهم . وهذا في الكتاب كثير .

ثالثا : بعض الأعلام لم يذكر المترجمون لهم تاريخ مولد أو تاريخ وفاة ، فلم يَتَّقِ عنهم إلا مبلغ عمرهم الذي ذكره المصنّف ، ويترك تحديداً العصر والزمن لظروف العَلَمِ المترجم ؛ روايةً وشيوخاً وتلاميذاً (١) .

وفيما وراء تلك الفوائد التي يُتيحها لنا منهج الكتاب ، نقف عند فوائد أخرى ، منها :

أولاً : في تراجم المُعَمَّرين جاءنا ابن الجوزي بزيادات لم تأت في أشهر كتابٍ عن المعمرين ، وهو كتاب أبي حاتم السُّجستاني (٢) ، بل إنه حكى أشياء عن أبي حاتم ليست في كتابه المعمرين المطبوع ، ممّا يُرجح أن في هذا المطبوع منه نقصاً .

ثانيا : ضَبَطَتِ النسخة المخطوطة من الكتاب - وهي مقروءة على ابن الجوزي ، كما يأتي بيان ذلك إن شاء الله - ضَبَطَتْ بعضَ الأعلام المشتبهة ، ممّا كان سَنَدًا لبعض علماء المُشْتَبِه فيما بعد (٣) .

ثالثا : لابن الجوزي (مَشِيخَة) ذَكَرَ فيها شيوخه ومُروياتِهِ عنهم ، وهي مطبوعةٌ مُتداوِلَةٌ ، ولكنه ذكر في كتابنا هذا ثلاثةً من شيوخه لم يذكرهم في (مشيخته) وهم : أبو الحسين بن الفراء ، وزاهر بن طاهر ، وأبو الحسن ابن عبد السلام (٤) . كما أنه أيضاً صَحَّحَ شيئاً في تلك (المشيخة) (٥) .

(١) انظر ترجمة (نصر بن زياد) ص ٨٧ ، واجتهدتُ فيه اجتهادات أرجو أن تكون صحيحة . وانظر أيضاً ترجمة (الزبير بن حبيب) ص ٥١ و ترجمة (أحمد بن جعفر بن حمدان السُّقَطِي) ص ٩١ .

(٢) انظر تراجم (أكثم بن صُتَيْبِي ، وأبيه صُتَيْبِي ، وأبي وجزة) صفحات ١٠٦ ، ١١٢ .

(٣) انظر ترجمة (ثُوب بن ثُلدة) ص ١٠٨ ، و (مِرْدَاس بن ضَيْم) ص ١١١ .

(٤) انظر ص ٥٣ ، ٧٤ ، ويبدو أنه اكتفى في (مشيخته) بالأكابر منهم فقط ، فقد قال في

ختامها ص ١٩٨ : « هذا آخر المشايخ الأكابر ، وقد سمعتُ من جماعةٍ غيرهم ، ولي إجازات من خلق يطول ذكرهم » . ولكن هؤلاء المذكورين من الأكابر أيضاً .

(٥) انظر ص ٥٥ تعليق ٧ .

وابعاً : معلوم أن ابن الجوزي كان من كبار الحنابلة ، وهذا سبب ما نراه من عناية ظاهرة بأعمار الحنابلة ، وهو ما يُفسّر لنا أيضاً إغفاله لأعمار بعض العلماء الأعيان ممن لهم شهرةً ونباهة ، فمِغيار « الأعيان » عنده - في غالب الأمر - الحنبليّة أولاً ، ثم يأتي بعض المشاهير الآخرين ، في مناصبهم أو في علومهم ، وعلى ذلك لا نستطيع أن نقول إنه استقصى « الأعيان » بالمعايير العامّة .

خامساً : ابن الجوزي بغداديّ المولد والوفاة ، وهو مشدودُ النظر إلى بغداد ، لا يكاد يُديرُ وجهه عنها ، ولذلك يبدو في كتابه المنتظم - وهو أشهر مصنفاته التاريخية - كما يقول الدكتور شاکر مصطفى : « بغدادياً عراقياً ، لا إسلامياً عالمياً ؛ لأنه يركز جهوده على تاريخ بغداد بالذات ، ذاكراً في ختام حوادث كلّ سنةٍ وفيات الرجال فيها ، وهم بدورهم بغداديون في الأغلب » (١) .

فلا عجب إذن أن يكون معظم « أعيانه » في هذا الكتاب من البغداديين ، فكان « البغدادية » هي المعيارُ الثاني عنده بعد « الحنبليّة » ولا نكثرة - إن شاء الله - فإن حبّ البلد (٢) ، والعصبية للمذهب مما هو مركزُ في الطّباع .

* * *

(١) التاريخ العربي والمؤرخون ١٠٨/٢ ، ١٠٩ .

(٢) ما يُستأنسُ به هنا قول بهاء الدين محمد بن إبراهيم بن النحاس المتوفى سنة ٦٩٨ ، في مقدمة كتابه هدى مهابة الكتّابين ص ٧٣ ، ٧٤ : « فإن بعض من يهزّ عليّ جاءني بقصيدة الأديب العالم الفاضل المتقن شهاب الدين محاسن بن إسماعيل بن علي بن أحمد بن الحسين بن إبراهيم الحلبي المعروف بالشوّاء ، تغمّده الله برحمته ، التي جمع فيها بعض ما يقال بالياء والواو ، واتّمسّ منّي أن أتبه على ما جمعه منها ، فنشطني لذلك جامع البلديّة ، وأن أوميء إلى مقدار ما اشتمل عليه أهل بلدي من الفضائل ، وما امتازوا به من العلوم التي لم يحرّر مثلها إلا أكابر الأوائل » .

مصادر الكتاب

لم يُصرِّح ابن الجوزي بشيء من موارده ومصادره ، إلا ما كان من النقل عن أبي حاتم السَّجستاني ، في أعمار المعمرين ، ثم ما كان من النقل عن ابن أبي الدنيا ، في مروياته عند ذكر رأس العَقْد . ومن النقل عن ابن قُتيبة (١) .

لكنني رأيتُه يدور كثيراً حول الخطيب البغدادي ، في (تاريخ بغداد) وإن لم يصرِّح بذلك ، ويظهر هذا عند اختلاف الأعمار في الكُتُب والمصادر ، فهو دائماً مع الخطيب ، آخذاً منه ، ومعتمداً ما فيه . وقد علَّقتُ على بعض من ذلك ، وتركت بعضاً (٢) .

• • •

(١) ص ١١٧ .

(٢) انظر صفحات ١٨ تعليق (٤٠١) ، و ٤٤ تعليق (١٠) ، و ٥١ تعليق (٦) ، و ١٠١ تعليق (٢) . وتأمل عبارة الذهبي حين ذكر الكُتُب التي عوَّل عليها ابن الجوزي في الحديث : « ولم ير حل في الحديث ، لكنَّه عنده » مسند الإمام أحمد » ، و « الطبقات » لابن سعد ، و « تاريخ الخطيب » ، وأشياء عالية ، و « الصحيحان » ، و « السنن الأربعة » والحلية » بحر أعلام النبلاء ٣٦٦/٢١ .

تَقُولُ الْمُتَأَخِّرِينَ عَنْهُ

هذا الكتاب مذكورٌ في ترجمة ابن الجوزي ، معدودٌ في مؤلفاته (١) ،
وممن نقل عنه صراحة ، شمسُ الدين بن خلّكان ، في ترجمة البحترى (٢) .

وقد رأيتُ مؤرّخ الإسلام الحافظ الذهبي وكأنه نظر في هذا
الكتاب (٣) ؛ لأنه كثيراً ما يُنصّ على أن المترجم توفى عن كذا عاماً ، وترى
هذا كثيراً في كتابيه العبر وسير أعلام النبلاء ، ولم أر ذلك شائعاً عند غيره من
المؤرخين .

ويكاد الذهبي يُصرّح بالنقل عن هذا الكتاب ، عند ترجمة « سلمان
الفراسي » رضی الله عنه ، من سير أعلام النبلاء ، حين يقول : « وقد نقل
طول عمره أبو الفرج بن الجوزي وغيره » (٤) .

ثم رأيت الأبهسي نقل شيئاً عن ابن الجوزي في أعمار المعمرين ، يتفق
بعضه مع ما في كتابنا هذا (٥) .

هذا وقد أظهرني الله عزّ وجلّ على نقلٍ عزيز عن كتابنا هذا ، في كتاب
(التوضيح لكتاب المشبه (٦) في الرجال) للحافظ ابن ناصر الدين محمد بن
أبي بكر عبد الله بن محمد الدمشقي الشافعي المتوفى سنة ٨٤٢ ، ولولا العلامة
الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني (٧) ، رحمه الله ، ما وقفت على ذلك

(١) مؤلفات ابن الجوزي ص ٧٠ ، ٧١ ، برقم (٣٣) وقد ذكر الأستاذ عبد الحميد العلوجي
الكتب التي ذكرت أعمار الأعيان .

(٢) وفيات الأعيان ٢٨/٦ .

(٣) وقد ذكره في جريدة مصنفات ابن الجوزي ، في أثناء ترجمته من سير أعلام النبلاء ٣٦٩/٢١ .

(٤) سير أعلام النبلاء ٥٥٦/١ ، وانظر كتابنا هذا ص ١١١ ، ١١٢ .

(٥) المستطرف ٧٤/٢ .

(٦) المشبه للحافظ الذهبي ، كما هو معروف ، وهو مطبوعٌ متداولٌ .

(٧) كان رحمه الله عالماً جليلاً ، وكان حجةً في علم الرجال وضيظ الأنساب . توفى بمكة المكرمة

سنة ١٣٨٦ هـ . وانظر كلمتي الموجزة عنه في مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي ص ٢٠٣ - ٢٠٥ .

النقل العزيز : وذلك ما ذكره رضى الله عنه في حواشى الإكمال لابن ماكولا ،
في الكلام على « ثوب بن ثلدة » ، المذكور عندنا في (عقد المائتين) (١) .

قال الحافظ ابن ناصر الدين ، فيما نقله المعلمى من كتابه التوضيح :
« وهكذا وجدته أيضاً مقيداً بالخطّ في كتاب أعمار الأعيان لأبى الفرج بن
الجوزى ، في نسخة قرئت عليه وعليها خطّه » (٢) .

قلتُ : وهذه النسخة التى رآها الحافظ ابن ناصر الدين من (أعيان
الأعيان) ووصفها بأنها قرئت على ابن الجوزى وعليها خطّه ، هى النسخة التى
أنشُر عنها الكتاب ، وسيأتيك وصفها ، إلا أن يكون ابن الجوزى قد قرئت عليه
نسخة أخرى من الكتاب غير تلك ، وهذا بعيد !

(١) ص ١٠٨ .

(٢) الإكمال لابن ماكولا ٥٦٦/١ .

نسخة الكتاب

هي نفيسة من النفائس التي يضمها قسم المخطوطات بعمادة شئون المكتبات بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض (١) . وكانت هذه النسخة في ملك عَلم الأعلام الأستاذ خير الدين الزركلي (٢) رحمه الله ، ثم آلت إلى قسم المخطوطات بجامعة الإمام محمد بن سعود ، فجزى الله العاملين بها خيراً .

والنسخة بقلم تعليق واضح ، وتقع في عشرين ورقة ونصف ، أى في إحدى وأربعين صفحة . ومسطرتها ١٦ سطرًا ، في كل سطر نحو ١٠ كلمات ، ومقاسها ١٣×١٨ سم .

كُتِبَ النسخة محمد بن عمر بن أبى بكر بن عبد الله المقدسى ، وفرغ منها يوم السبت ثالث عشر من رجب سنة ٥٩٢ ، بمحروسة مزغرا (٣) سُرُوج .

وفي صفحة العنوان سماعٌ لصاحب النسخة و كاتبها ، على ابن الجوزى المؤلف ، تاريخه ثامن عشر شوال سنة ٥٨٥ ، وكتب ابن الجوزى بخطه صححة ذلك السماع . وهذا السماع منقول إلى نسختنا المكتوبة سنة ٥٩٢ ، فالناسخ سمع النسخة من مؤلفها سنة ٥٨٥ ، ثم نسخ نسخة لنفسه هي هذه المنسوخة سنة ٥٩٢ ، وكتب له ابن الجوزى بصحة ذلك السماع ، وقد أثبت ذلك السماع في صدر المطبوع ، ثم ترى صورته الفوتوغرافية إن شاء الله .

وفي الجزء الأسفل من صفحة العنوان قراءة تاريخها سنة ٦٣٠ .
وبآخر النسخة سماعٌ على كاتب النسخة المذكور ، تاريخه سنة ٦١٣ .

(١) انظر حديث هذه النفائس في : الفهرس الوصفى لبعض نواذر المخطوطات بالمكتبة المركزية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية : إعداد محمود محمد الطناحى : الرياض ١٤١٣ هـ = ١٩٩٣ م .

(٢) ويرجع إليها الزركلي كثيراً في حواشى الأعلام ، وذكرها في ثبوت مصادره ومراجعته ٢٧٠/١٠ ، كما أخذ منها صورة خط ابن الجوزى ، وأثبتها في موضع ترجمته .

(٣) انظر تعليقي ص ١٣٠ .

وفي حاشية الورقة الأولى التي بها خطبة الكتاب جاءت هذه القراءة :

« قرأتُ جميعَ هذا الجزء على الشيخ الإمام العالم العامل الأُوحد الصُّدر الكبير فخر الدين أبي الحسن على بن أحمد بن عبد الواحد المقدسي ، بإجازته من ابن الجوزي ، فسمعه عبد الرحمن بن أحمد بن سامة . وصَحَّ بكرة ثامن عشرى شهر رمضان المعظم سنة إحدى وثمانين وستائة ، بمنزله بسفح جبل قاسيون . وكتبه محمد بن عبد الرحمن بن سامة بن كوكب بن عز بن حميد ، عفا اللهُ عنه . »

قلتُ : والشيخ المقروء عليه هو : فخر الدين بن البخاري ، من كبار الفقهاء والمحدثين ، وصفه الذهبي بمُسَيِّد الدنيا ، وقال ابن رجب : مُسْنَد الوقت ، وكان حنبليَّ المذهب ، روى عن ابن الجوزي وتخلَّق كثير ، وطال عمره ، ورحل الطلبة إليه من البلاد ، وألحق الأسباط بالأجداد في علوِّ الإسناد . ولد سنة ٥٩٥ ، وتوفى سنة ٦٩٠ (١) .

أما كاتب القراءة فهو : شمس الدين أبو عبد الله الحنبلي ، الحافظ المتقن الحدِّث الصالح ، الدمشقي الصالحى ، نزيل القاهرة ، كان فصيحاً سريعَ القراءة حسنَ الخطِّ ، ضابطاً متقناً ، كَتَب الكثير ، وفيه كَيْسٌ وتواضعٌ وعفةٌ ودينٌ وتلاوة ، وُلِد سنة ٦٦٢ ، وتوفى سنة ٧٠٨ (٢) ، فيكون قد حضر قراءة الكتاب وأثبتها وسبَّه ١٩ سنة .

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٣٢٥/٢ ، والعر ٣٦٨/٥ .

(٢) ذبول العر ص ٤٣ ، والوفى بالوفيات ٢٣٩/٣ ، وذيل طبقات الحنابلة ٣٥٥/٢ ، والدرر

الكامنة ١١٧/٤ .

ولانتملن هذه الأوصاف التي تقرأها عن الرجل ، على المبالغة والاسترسال ، كما يظن بعض من لا عقول لهم ولا اطلاع ؛ فإن هذه الأوصاف - فوق أنها حقٌ صاحبها - تُؤكِّد الثقة بهذه العلوم والمعارف التي نقلها لنا القومُ روايةً أو كتابةً . وعلى الجانب الآخر فقد كان علماءنا ومؤرخونا يبهون على من ليسوا محل الثقة من العلماء والمصنِّفين ، إرشاداً وتحذيراً من التحويل عليهم والاعترار بهم ، وكانوا يشتلون في ذلك ويعتفون ، ولا يمنعون من ذلك قراءةً أو جوازاً . قال جعفر بن محمد القلاسي : سمعتُ محمد بن أبي السري يقول : لا تكتبوا عن أخى فإنه كذاب - يعنى الحسين بن أبي السري : تهذيب الكمال ٤٦٩/٦ .

وجاء بحاشية الورقة السابعة سماعَ على الشيخ فخر الدين بن البخارى المذكور ، بإجازته من مؤلفه . وهذا السماع بقراءة المحدث المفيد الشيخ أبى الحسن على بن مسعود بن نفيس الموصلى ثم الحلبي . وكتب هذا السماع يوم الأحد نصف شوال سنة ٦٧٨ ، بالمدرسة الضيائية بسفح جبل قاسيون ، ظاهر دمشق .

قلت : وقارىء هذا السماع ، وهو أبو الحسن على بن مسعود بن نفيس ، كان محدثاً مفيداً مشهوراً ، سمع وحديث وحصل أصولاً من الكتب ، وقفاها ، وكان يجوع ويشترى الأجزاء ، ويقنع بكسرة ، فيسوء خلقه مع التقوى والصلاح . لزمه الذهبى وقال فيه : « كان ديناً خيراً متصوفاً متعقفاً ، قرأ مالا يوصف كثرة ، وحصل أصولاً كثيرة ، كان يجوع ويتاعها » (١) . وُلد سنة ٦٣٤ ، وتوفى سنة ٧٠٤ .

(١) تذكرة الحفاظ ص ١٥٠٠ ، وذبول العبر ص ٢٦ ، والوفى بالوفيات ١٩٤/٢٢ ، وذبل طبقات الخنابلة ٣٥١/٢ ، والدرر الكامنة ٢٠٣/٣ .

حواشى النسخة

على حواشى هذه النسخة النفيسة تعليقات وفوائد جيدة : تضمّنت إضافة أعمار بعض الأعيان الذين لم يذكرهم المؤلّف ، داخل العقود ، أو الذين جاءوا بعد زمن المؤلّف ، كما تضمّنت التبييه على أوهام المؤلّف أو الناسخ .

وبهذه الحواشى أيضاً نقل من كتاب (الثبات عند الممات) لابن الجوزى ، لم أجده فى المطبوع منه (١) .

ثم كان لى أنا أيضاً - على ضَعْف مُتْبَى وَقَلَّةِ حِجْلَتِي - تنبيهات على بعض الأوهام ، تراها إذا أتت قراءتُك على الكتاب إن شاء الله ، وتتصل هذه الأوهام بتكرير بعض التراجم فى عقود مختلفة ، أو الخطأ فى مَبْلَغِ عُمُرِ الْمُتْرَجِّمِ ، أو التصحيف فى بعض الأسماء (٢) . هذا ؛ وسترى أيها القارىء الكريم - نفعلك الله بما قرأ - تطويلاً فى الحواشى والتعليقات ، وقد فعلته كارهاً له ، غير راغب فيه ، وما حَمَلْنِي عليه إلاّ منهجُ الكتاب القائم على الوجازة والاختصار ، بذكر الكُتْبَةِ أو التَّسَبُّبِ أو الشهرة فقط (٣) ، وليس كلُّ الناس يَعْلَمُ ، وكان لا يَدُّ أيضاً أن أذكر سنة الوفاة وأحرَّرها ، فقد وقع فى بعضها خلاف ، ثم إن الدلالة على موضع الترجمة من المراجع والمصادر مفيدٌ جداً لطالِبِ العِلْمِ المبتدئ ، على أنى لم أذكر من مراجع الترجمة إلاّ ما كان فى مكتبتى ورأيتُه رأى العين ، ثم راجعت عليه الترجمة ، فإذا أردت استقصاءً فى مراجع الترجمة فانظر مراجعى واطلبها واستفد منها ؛ فإن عند بعض المحققين من الكُتُبِ والعِلْمِ ما ليس عندى ، وبخاصة سير أعلام النبلاء للحافظ الذهبي ، وتهذيب الكمال لشيخه الحافظ الميزى ، فإن

(١) انظر ص ١٣ .

(٢) وهذا كثير ، لكن انظر مثالين منه فى ص ٢٢ (ترجمة عبد الله بن مطعون) وص ٤٢

(ترجمة أبى جعفر بن المسلمة) . وانظر مثلاً على التصحيف فى ص ٩٩ (ترجمة قرة بن نفاثة) .

(٣) وسأتيك الاسم كاملاً - إن شاء الله - فى فهرس الأعلام ، محالاً عليه من الكُتْبَةِ أو النسبة

أو الشهرة .

في حواشي هذين الكتابين علماً كثيراً ، أحسن الله إلى من حققهما ، وإلى من نشرهما .

فهذا ما كان من أمر تلك النسخة المخطوطة الوحيدة ، التي أنشر عنها الكتاب ، وهي نسخة جليلة ، كما رأيت . وهناك نسخة من الكتاب ، لم أستطع الظفر بها ، وهي النسخة التي ذكرها الأستاذ عبد الحميد العلوجي ، في مؤلفات ابن الجوزي ، وأشار إلى أنها في مكتبة الغازي خسرو بك بسرايفو ، في يوغوسلافيا ، ضمن مجموع برقم ٣٠٠ - أي أنها في أثون البوسنة والهرسك ، فرج الله كربهما .

وزادت الدكتوراة ناجية عبد الله إبراهيم ، فذكرت تاريخ الفراغ من نسخ هذه النسخة ، وهو يوم الأحد تاسع عشر شهر صفر سنة ١٠٢٤ هـ (٢) .

وبعد :

فإني أسأل الله العليّ القدير أن أكون قد وقفت في قراءة هذا الأثر العتيق ، وأن أكون قد أحسنت في أدائه والتعليق عليه ، ومن وقف على خطأ متي أو زلل فلينبهي عليه ، وليكتب لي به ، مشكوراً مأجوراً إن شاء الله ، ورحم

(١) مؤلفات ابن الجوزي ص ٧٠ ، ٧١ .

(٢) قراءة جديدة في مؤلفات ابن الجوزي ص ٣٩ ، نقلاً عن فهرس المخطوطات العربية في التركية

والفارسية ، في مكتبة الغازي خسرو بك بسرايفوس ١٣٣ ، ١٣٤

اللهُ امرئًا أهدى إلى عيوني ، وابنُ آدم إلى النقص ما هو ! وربُّنا المحمودُ في الأولى
والآخرة .

وكتب ذلك
أبو محمد
محمود محمد الطناحي

في يوم الأربعاء ٢٣ من رجب الفرد ١٤١٤
٥ من يناير ١٩٩٤ م

٦ شارع بشَّار بن بُرد - المنطقة السادسة
مدينة نصر - القاهرة

كلمة عن ابن الجوزي

هو جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد ، ينتهي نسبه إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه (١) .

أما « الجوزي » في نسبه فترجع إلى أحد أجداده الأعلين : « جعفر الجوزي » .

قيل : نسبة إلى قُرْضَة الجَوْز : موضع مشهور ، وقيل : إلى مَشْرَعَة الجوز ، وهي إحدى محالّ بغداد بالجانب الغربي . وقيل : نسبة إلى جَوْزَة في داره .

وُلد ابن الجوزي ببغداد ، بدرج حبيب ، سنة ثمانٍ أو تسعٍ أو عشرٍ وخمسمائة . ومات أبوه وله نحو ثلاث سنين ، ولما شب وترعرع حملته عمته - وكانت امرأةً صالحه - إلى مجلس خاله الحافظ أبي الفضل محمد بن ناصر السّلاميّ ، فاعتنى به وأسمعه الحديث . وأول شيء سمع في سنة ٥١٦ ، أي وهو في نحو الثامنة .

قال في أول مشيخته : « حملني شيخنا ابن ناصر إلى الأشياخ في الصغر ، وأسمعنى القوالى ، وأثبت سماعاتي كلّها بخطه ، وأخذ لي إجازات منهم ، فلما فهمت الطلب كنت ألزم من الشيوخ أعلمهم ، وأوثر من أرباب النقل أفهمهم ، فكانت همّتي تجويد العَدَد ، لا تكثير العَدَد » (٢) .

ثم مضت حياة ابن الجوزي بين الجِدِّ في الطلب والتحصيل ، وبين الإقراء

(١) لا سبيل لي ذكر ترجمة كاشفة مستوعبة لابن الجوزي بعد هذا الفيض من الترجمة له قديماً وحديثاً . لكن لا بدّ من كلمة تكون تذكراً وعوناً لطالب العلم المبتدىء . ومن أراد المزيد فعليه بسير أعلام النبلاء ٢١ / ٣٦٥ ، والمراجع بمحاشيتها . ثم مقدمة تحقيق « مشيخة ابن الجوزي » للأستاذ محمد محفوظ .

(٢) مشيخة ابن الجوزي ص ٥٣ ، نقلًا عن ذيل طبقات الخنابلة ٤٠١/١ . وانظر فهرس المشيخة ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

والتصنيف ، وقد بلغ فيه شأواً عظيماً . وقد سبق قول الحافظ الذهبي عنه : « وما علمت أحداً من العلماء صنّف ما صنّف هذا الرجل » وروى أن ابن الجوزي سئل عن عدد تصانيفه ، فقال : « زيادة عن ثلاثمائة وأربعين مصنفاً ، منها ماهو عشرون مجلداً ، ومنها ماهو كراساً واحداً » . وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في أجوبته المصرية : « كان الشيخ أبو الفرج مفتياً كثيراً والتصنيف والتأليف . وله مصنّفات في أمور كثيرة ، حتى عددها فرأيتها أكثر من ألف مصنّف ، ورأيت بعد ذلك ما لم أراه » (١) .

يقول الحافظ الذهبي في وصفه : « الشيخ الإمام العلامة ، الحافظ المفسر ، شيخ الإسلام مفخر العراق وكان رأساً في التذكير بلا مُدافعة ، يقول النظم الرائق ، والنثر الفائق بديهاً ، ويُسهب ، ويُعجب ، ويُطرب ، ويُطرب ، لم يأت قبله ولا بعده مثله ، فهو حامل لواء الوعظ ، والقيم بفنونه ، مع الشكل الحسن ، والصوت الطيب ، والوقع في النفوس ، وحسن السيرة ، وكان بحراً في التفسير ، علامةً في السُّر والتاريخ ، موصوفاً بحسن الحديث ، ومعرفة فنونه ، فقيهاً ، عليمًا بالإجماع والاختلاف ، جيّد المشاركة في الطب ، ذا تفنّن وفهم وذكاء وحفظ واستحضار ، وإكباب على الجمع والتصنيف ، مع التصون والتجمل ، وحسن الشارة ، ورشاقة العبارة ، ولطف الشمائل ، والأوصاف الحميدة ، والحرمة الوافرة عند الخاصّ والعام ، ما عرّف أحداً صنّف ما صنّف » (٢) .

وقال الموفق عبد اللطيف البغدادي في تأليف له : « كان ابن الجوزي لطيف الصورة ، حلّو الشمائل ، رخيّم النعمة ، موزون الحركات والنغمات ، لذيد المفاكحة ، يحضر مجلسه مائة ألف أو يزيدون ، لا يُضَيّع من زمانه شيئاً ، يكتب في اليوم أربع كراريس ، وله في كلّ علم مشاركة ، لكنه كان في التفسير من

(١) الذيل على طبقات الخبالة ١/٤١٣ ، ٤١٥ .

(٢) سر أعلام النبلاء ٢١/٣٦٥ ، ٣٦٧ .

الأعيان ، وفي الحديث من الحُفَاط ، وفي التاريخ من المتوسِّعين ، ولديه فقه كاف ، (١) .

وقد علَّتْ شهرةُ ابن الجوزي في الوعظ والتذكير ، وقد حضر بعض مجالسه في الوعظ الرحالة ابن جُبَيْر ، المتوفى سنة ٦١٤ ، وقد وصف مجلساً من مجالسه في شهر صفر سنة ٥٨٠ ، فقال : « ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحَد جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي فشهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد ، وفي جوف الفراكل الصيِّد ، آية الزمان ، وقرة عين الإيمان ، رئيس الحنبليَّة ، والمخصوص في العلوم بالرُّبِّ العليَّة ومن أبهَر آياته ، وأكبر معجزاته ، أنه يصعد المنبر ، ويتدىء القراء بالقرآن ، وعددهم نيف على العشرين قارئاً ، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القراءة يتلونها على نَسَقٍ بتطريب وتشويق ، فإذا فرغوا تلت طائفة أُخرى على عددهم آية ثانية ، ولا يزالون يتناوبون آياتٍ من سُورٍ مختلفات ، إلى أن يتكاملوا قراءة ، وقد أثنوا بآياتٍ مشتبهات ، لا يكاد المتقد الخاطر يحصلها عدداً ، أو يُسميها نَسَقاً .

فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد حُطْبته ، عَجِلاً مُبْتَدِراً ، وأفرغ في أصداف الأسماع من ألفاظه دُرُراً ، وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء حُطْبته فقراً ، وأتى بها على نَسَقٍ القراءة لها ، لا مقدماً ولا مؤخراً . ثم أكمل الخطبة على قافيةٍ آخِرِ آيةٍ منها .

فلو أن أهدغ من في مجلسه تكلف تسمية ما قرأ القراء آية على الترتيب لعجز عن ذلك ، فكيف بمن يتظلمها مُرتجلاً ، ويورد الحُطْبَةَ القراء بها عَجِلاً ! ﴿ أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الطور : ١٥] ﴿ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِين ﴾ [الهم : ١٦] - فحدِّث ولا حرج عن البحر ، وهيئات ، ليس الخبر عنه كالخبر .

(١) سر أعلام النبلاء ٣٧٧/٢١ .

ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برفائق من الوعظ ، وآيات بينات من الذكر ، طارت لها القلوب اشتياقا ، وذابت بها الأنفس احتراقاً ، إلى أن علا الضجيج ، وتردد بشهقاته النشيج ، وأعلن التائبون بالصياح ، وتساقطوا عليه تساقط الفرائش على المصباح ، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها ، ويمسح على رأسه داعياً له ، ومنهم من يُعشى عليه فيرفع في الأذرع إليه ، فشهدنا هولاً يملأ النفوس إنابةً وندامةً ، ويذكرها هول يوم القيامة ، (١) .

وبرغم هذه الشهرة العريضة التي استحقتها ابن الجوزي بعلمه ووعظه وكثرة تصانيفه ، فإن الحياة لم تصف له ، وابتلى بمحنتين :

الأولى : أن بعض الرافضة وشى به إلى الخليفة الناصر ، وكان الناصر يميل إلى الشيعة ، ولم يكن له ميل إلى ابن الجوزي ، فلما وشوا به إليه أرسل من شتمه وأهانته وأخذ قَبْضاً باليد ، وختَم على داره ، وشئت عياله ، ثم حُبل إلى سفينة ونُقي إلى مدينة واسط ، فحبس بها في بيتٍ خرج ضيق ، وكان في أثناء ذلك الحبس يخدم نفسه ، ويعسل ثوبه ، ويطبخ ، ويستقي الماء من البئر (٢) ، وكانت هذه المحنة من سنة ٥٩٠ إلى سنة ٥٩٥ ، فكانت غاشيةً من الغواشي أطبقت عليه وهو في الثمانين من عمره ، ولم يعيش بعدها سوى عامين .

والحنة الثانية : كانت في ولد له يُسمى « علياً » أخذ مصنفات والده وباعها تبع العبيد ، ولمن يزيد ، ولما أُخدير والده إلى واسط ، تمحل على الكُتب بالليل ، وأخذ منها ما أراد ، وباعها ولا يضمن المداد ، وكان أبوه قد هجره منذ سنين ، فلما امتحن صار حرباً عليه (٣) .

وفي ليلة الجمعة ، بين العشاءين ، الثالث عشر من رمضان سنة ٥٩٧ ، توفي ابن الجوزي ، بعد مرض لم يدم أكثر من خمسة أيام ، وكان يوم جنازته

(١) رحلة ابن جبير ص ١٩٦ - ١٩٨ ، وذكر له مجلساً آخر .

(٢) سير أعلام النبلاء ٣٧٦/٢١ ، والذيل على طبقات المناهبة ٤٢٦/١ .

(٣) المرجعين السابقين ص ٣٨٤ ، ٤٣١ .

يوماً مشهوداً ، غُلِّقت الأسواق ، وازدحم الخلق ازدحاماً شديداً ، وكان يوماً
قائظاً من أيام ثُموز (يوليو) فافطر خَلَقٌ ، ورَمَوْا أَنْفُسَهُمْ فِي الْمَاءِ ، وحزن
الناسُ عليه حُزناً شديداً ، وَبَكَوْا عَلَيْهِ بكاءً كثيراً . رحمه الله ورضى عنه .

* * *

صور مخطوط الكتاب

جميع هذا الكتاب على اللغة الامامية العالم الاصل الاصول الصدر المشرق والشيخ محمد باقر
الاصفي حله في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٠٤ هـ في مدينة قم المقدسة

بسم الله الرحمن الرحيم والاعمال والاقوال لا اله الا الله
الحمد لله خالق خلقه بالقدرة من تبار وتقلبهم بالحكمة في انطق بالادب
وقاسم اذناهم واجالهم فالله يجزي حساب تمنع صوب البرزق مع
بالاشباب ومنهم موشع عليه ولم يرع في الكتاب ومنهم مستل
في الطفولة ومنهم ماخوذ في الشباب ومنهم من يموت كما جبر
فالشباب ومنهم منفرات بالنجم الطويل عن الاجزاء والارباب
تسبه نقت بها الارادة لا بعد لها ولا انقلاب وما يعبر به
ينقص من عمره الا في كتاب احمد حمد موقن بالاجز على
والنواب واصحابنا رسول محمد اسرف رجل من راحل او ترو
في كتابنا جميع انباده على شرب عنه والاحباب صلاة
نفعها في الدنيا وبرم الماب هذا كتاب ذكرت فيه اعمار الاعيان
فان من راي كثير القدر قد مات صغير السن افاده
احمد حمد موقن بالله تعالى اذ انع عليه بالزيادة

في سنة الف سنة عيسى الخليفة الثاني في دار الكوفة وكان عازرا عبد الله بن عبد
 بن مكي وهو صاحب الشورى وعليه عازر مع الوفاء الى الجسم تستسقون قد عود سال
 هو النفاذ احراز بقا لعمه الفسيف كما هذا في سنة خلف بقره نسف نكلا ماخذ
 الشورى هو من خرج في سنة الف الى ان موافقتم باخذ حرا ما تحت سمعه ذمها بنو العيس
 راز بعابده سنة ونيقا وحسب في سنة الف الى ان ما زاد قال محمد بن يحيى
 عازر بن شيخان قد ولد في دار الحرم وعاش ثلثة الاف سنة وسمي الله نوح
 موح الزم عمر ان الشورى والكلمات وهو كتاب اعمار الاعيان فتح الاسلام من المير
 للعد الله وحده ومع الله على ما يجد واليه وفرغ سنة محمد بن عمر بن ابي بكر المشد
 الكنت في الف سنة من رخصته انفس وتسعة وجماعة محبوا منه في سنة
 في سنة الف سنة عيسى الخليفة الثاني في دار الكوفة

في سنة الف سنة عيسى الخليفة الثاني في دار الكوفة وكان عازرا عبد الله بن عبد
 بن مكي وهو صاحب الشورى وعليه عازر مع الوفاء الى الجسم تستسقون قد عود سال
 هو النفاذ احراز بقا لعمه الفسيف كما هذا في سنة خلف بقره نسف نكلا ماخذ
 الشورى هو من خرج في سنة الف الى ان موافقتم باخذ حرا ما تحت سمعه ذمها بنو العيس
 راز بعابده سنة ونيقا وحسب في سنة الف الى ان ما زاد قال محمد بن يحيى
 عازر بن شيخان قد ولد في دار الحرم وعاش ثلثة الاف سنة وسمي الله نوح
 موح الزم عمر ان الشورى والكلمات وهو كتاب اعمار الاعيان فتح الاسلام من المير
 للعد الله وحده ومع الله على ما يجد واليه وفرغ سنة محمد بن عمر بن ابي بكر المشد
 الكنت في الف سنة من رخصته انفس وتسعة وجماعة محبوا منه في سنة
 في سنة الف سنة عيسى الخليفة الثاني في دار الكوفة

صورة آخر المخطوطة . وفيها تاريخ النسخ والسمع

